الأرض في السوق إلى الحركة الصهيونية وأرباب رؤوس الأموال.

بالخلاصة، ليس من الواضح أبداً، كيف أن مجرد وضع قيود على حقوق الملاك في فلسطين الانتدابية من أجل حماية بعض المستأجرين (ولم يكن ذلك مجدياً في الأساس كما تفيدنا الأدبيات في الموضوع)، شكّل اعتداء سافراً على حقوق أهل البلد كما كانت قائمة في الحقبة العثمانية. وأحد أسباب عدم الوضوح هذا هو أن أغلبية الأراضي التي سيطرت عليها الحركة الصهيونية حتى سنة ١٩٤٨ تجمعت من خلال عمليات شراء لملكيات تأسست في الحقبة العثمانية والانتدابية على حدّ سواء. إذاً، أين كانت القيود المذكورة؟ وماذا فعلت؟ هناك إجابات عن هذه الأسئلة في الأدبيات المختصة بالموضوع، والمسألة تتطلب مزيداً من البحث الأرشيفي الدقيق.

على كل حال، فإن مما لا شك فيه أن للمقالة أهمية تاريخية، من حيث أنها تعكس تصورات لفاعلين تاريخيين في فلسطين، أوروبيين وربما محليين أيضاً، لكن ـ للأسف ـ ليس من حيث أنها تكشف "حقيقة وسر الآلية الرئيسية... التي اتبعتها حكومة الاستعمار البريطاني (حكومة الانتداب) من أجل تنفيذ وعدها لقيادة الحركة الصهيونية العالمية، المعروف بوعد بلفور..." (ص ٤) كما جاء في التقديم للمنشور.

منير فخر الدين
باحث وأستاذ
في جامعة بيرزيت

السلفي اليتيم: الوجه الفلسطيني لـ "الجهاد العالمي" و"القاعدة"

حازم الأمين

بيروت: دار الساقي للطباعة والنشر، ٢٠١٠. ٢١٦ صفحة.

يتكون الكتاب من مقدمة وتمهيد وسبعة فصول، علاوة على الخاتمة التي سمّاها الكاتب بحق "ليست خاتمة"، فنحن أمام قضية ما زالت تتفاعل في طول الأرض وعرضها، وتملأ الدنيا بحركتها والحركات المضادة لها، ونحن لا نزال بعيدين عن أن نرى نهاية المشهد. وقبل اكتمال الصورة ليس من حقنا، ولا في قدرتنا أن نتحدث عن خاتمة الأشياء.

بأسلوب جمع بين سلاسة الكتابة الصحافية وعمق الأسلوب العلمي يوضح الكاتب في المقدمة الهدف الأساسي، أو الفكرة الأساسية من الكتاب، وهي تسليط الضوء على الدور الذي أداه الفلسطينيون، وخصوصاً فلسطينيي الشتات، في الإسلام الجهادي المتمثل أساساً في "القاعدة" والسلفية الجهادية، وذلك في إطار البحث عن "هوية" أو عن جذور "إثنية" لهذا النوع من الإسلام. ويصل الكاتب إلى نتيجة يشعر القارئ فيها أحياناً بأن الكاتب ذهب بها إلى أبعد مما تحتمل، وهي أن دور الفلسطينيين في ذلك "الجهاد" هو دور رئيسي، بل يمكن أن يكون دوراً مقرراً، ولا سيما في مجال التنظير والإفتاء بشأنه.

ومن خلال الحديث عن سِيَر أشخاص ذوي أصول فلسطينية

وأدوا أدواراً كبيرة في نشأة الجهاد الإسلامي السلفي، بدءاً بصالح سرية الذي شن هجوماً مسلحاً على الكلية الحربية المصرية في سنة ١٩٧٤، مروراً بمحمد سالم الرحال وعبد الله عزام، وصولاً إلى أبو قتادة الذي "عمل" مفتياً للإسلام الجهادي في المغرب العربي، فإن المؤلف حاول أن يشير إلى المؤثرات المركبة التي أثرت في تلك الشخصيات في سياق البلاد التي عاشوا فيها وطبيعة الفكر والسياسة الموجودين في تلك البلاد.

وأول المؤثرات التي يناقشها الكتاب هو فلسطين، البلد الأم، وكيفية تأثيرها في تلك الشخصيات، ومنها مثلاً، مَن ولد داخلها ثم خرج مع أهله إلى الأردن بعد "النكبة" في سنة ١٩٤٨، أو بعد نكسة حزيران/يونيو ١٩٦٧، إذ إن التشتت الذي أعقب احتلال فلسطين، وتفرق المجتمع الفلسطيني في بقاع متعددة، وفقدان الهوية والضياع الذي أصاب معظم الفلسطينيين، أمور كان لها أثرها الكبير في تشكل هوية ضحايا النكبة المباشرين والأجيال اللاحقة وتوجهاتهم.

ثقافياً، فإن أهم تأثير للنكبة كان مغادرة الأغلبية العظمى من الفلسطينيين "ثقافة البحر" نحو "ثقافة الصحراء"، حيث الندرة والميل إلى التعصب والانغلاق والضيق والتطرف، بدلاً من الوفرة والتسامح والانفتاح والرحابة والاعتدال، على ما تدل عليه بحوث اجتماعية، وحيث تسود عقلية القبيلة ونظاماها الفكري والاجتماعي ـ إذا ما أردنا التعميم.

أمّا ضياع الهوية وتشتتها لدى الفلسطينيين بعد النكبة، فجعلاهم يبحثون عن هويات بديلة، وساعدهم في ذلك أيضاً ضعف إمكاناتهم أمام ما يبدو من ضخامة التآمر على قضيتهم، فسعوا غالباً للانخراط اجتماعياً وفكرياً وسياسياً فيما هو أشمل، فانخرطوا في الأحزاب القومية وكذلك في الأحزاب اليسارية الأممية. وكان ذلك في أغلب الأحيان استجلاباً لتلك الهويات الأكبر للاهتمام بالقضية الوطنية وليس تجاوزاً لهويتهم.

وفقط في الحالة الإسلامية الفلسطينية لم يكن الأمر كذلك، ففي حين كان المطلوب من الحركات القومية واليسارية أن تهتم بتحرير فلسطين، ولو نظرياً، فإن الانخراط في الحركة الإسلامية، وخصوصاً حركة "الإخوان المسلمين"، كان هروباً من المشكلة الوطنية الماثلة أمامهم، في اتجاه مشكلات أُخرى متخيلة أو غير متخيلة مثل "محاربة الكفر" الذي يقع بالنسبة إليهم غالباً خارج فلسطين، في أفغانستان أو العراق...

لقد مرت الحركة الإسلامية في فلسطين بمراحل متعددة فيما يتعلق بموقفها من القضية الوطنية الفلسطينية، فـ "الإخوان المسلمون" في الضفة الغربية تماهوا مع موقف "الإخوان المسلمين" في الأردن، بينما أصبح "الإخوان" في غزة قريبين من مواقف "الإخوان المسلمين" في مصر.

ولم يكن "الإخوان المسلمون" جزءاً من الحركة الوطنية الفلسطينية التي تمثلت في منظمة التحرير بعد إنشائها في سنة ١٩٦٤، وفي الحركات الفدائية التي ظهرت بدايةً بحركة "فتح" في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، وإنما كان موقفهم ("الإخوان المسلمون") من القتال المسلح ضد الاحتلال سلبياً، وطفا على السطح رفض منظّريهم اعتبار مَن يسقط من المقاومة ضد الاحتلال شهيداً. وكان اشتراك بعض أعضاء تلك الحركة في الأردن في معسكرات تابعة لحركة "فتح" قبيل خروج المقاومة من الأردن ـ كما أوضح الكاتب ـ خروجاً عن المنهج التقليدي للحركة وليس امتثالاً لرغباتها.

وقد استمر ذلك الموقف من المقاومة حتى سنة ١٩٨٧ حين أُنشئت حركة "حماس" ليس بقرار رسمي من "الإخوان"، ولا بإرادتهم، وإنما انبثاقاً منهم، وذلك على خلفية النقاش الذي تصاعد بين الشباب الإسلامي بشأن ضرورة الانخراط في مقاومة الاحتلال (لمزيد عن ملابسات إنشاء حركة "حماس"، راجع: إياد البرغوثي، "الأسلمة والسياسة في الأراضي الفلسطينية المحتلة"، القدس: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، ١٩٩٠).

وجدير بالذكر أن حركة "حماس"

أُنشئت في قطاع غزة أولاً، ثم التحق بها إسلاميون من الضفة الغربية والشتات الفلسطيني، وذلك للتدليل على أن هذه الحركة لم تنشأ في الكويت كما جاء في الكتاب، وأنه على الرغم من أن فلسطينيين من الكويت انخرطوا فيها، فإنهم لم يكونوا من المؤسسين مع أنهم تبوؤا مراكز قيادية فيها فيما بعد. وهذا يدلّ على أن إسلاميي الشتات الفلسطينيين لم يذهبوا جميعاً في اتجاه تجاوز الهوية الفلسطينية إلى هويات إسلامية أكبر، بل إن بعضهم عاد كي يؤكد هويته الفلسطينية مثل بعض قادة "حماس".

أمّا "حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين" فإنها أيضاً نموذج لتلك الحركة التي أُنشئت في إثر نقاش دار أساساً بين إسلاميين فلسطينيين ومصريين، في مصر، في شأن الدور المفترض للإسلاميين حيال القضية الوطنية الفلسطينية. وقد خرج مؤسسو الحركة برأي فحواه أن إسلامية الحركة لا تتناقض مع وطنيتها، مع أن ذلك حدث في مراحل معينة فقط بالنسبة إلى "الإخوان المسلمين"، بينما لم يحدث قط أن وفّق حزب التحرير الإسلامي بين الطابعين الإسلامي والوطني.

فحزب التحرير الإسلامي أنشأه الشيخ الفلسطيني تقي الدين النبهاني، في فلسطين في سنة ١٩٥٣، غير أن برنامج الحزب لم يتحدث عن القضية الوطنية الفلسطينية إلاّ على أساس أنها إحدى قضايا المسلمين التي يتعين على الخليفة الذي لا بد من أن يأتي، أن يجهز جيوشه لتحريرها. أمّا النضال ضد الاحتلال قبل مجيء الخليفة فعبثي وغير وارد لدى هذا الحزب، حتى إنه جمد نفسه فترة من الوقت بعد احتلال إسرائيل الضفة الغربية وغزة في سنة ١٩٦٧.

لكن خطاب حزب التحرير خطابٌ راديكالي بامتياز، ذلك بأنه غالباً ما يتحدث عن الأنظمة على أساس أنها أنظمة كفر يجب محاربتها، وهو يضع الأنظمة العربية والإسلامية جميعها في سلة واحدة ويُتبعهم للسياسة الأميركية أو البريطانية، كما أنه ينظر إلى الديمقراطية على أنها نظام كفر صراحة، وهو خطاب أصولي سلفي بامتياز. وفي اعتقادنا، فإن هذا الخطاب أثّر في كثيرين من الأشخاص الذين أصبحوا قادة للسلفية الجهادية حتى إن لم يكونوا جميعهم أعضاء في حزب التحرير بالضرورة، وهذا ما رصده الكاتب في حديثه عن سِيَر كبار المنظّرين للإسلامية الجهادية ذوي الأصول الفلسطينية.

وفي أثناء النقاش بشأن جوهر القضية الفلسطينية وكيفية تأثيرها في ذهاب كثيرين من الفلسطينيين نحو تجاوز قضيتهم الوطنية إلى ما هو أكبر فكرياً وحركياً، فإننا نلاحظ أن طبيعة العدو الذي واجهه الفلسطينيون، والممثل في الحركة الصهيونية متحالفة مع الإمبريالية الغربية، كان لها أثر كبير في هذا التجاوز للوطني. فالصهيونيون وكثيرون من اليهود المنتشرين في جميع أرجاء الأرض، بتحالفهم مع المصالح الإمبريالية، وكذلك مع المتفوقين في الفكر والعلوم وفي كثير من المجالات الأخرى، هم مَن جعل العالم كله ميداناً لمحاربة الفلسطينيين من خلال مجموعاتهم الضاغطة وتأثيرهم في أنظمة كثير من دول العالم.

وقد أثّر هذا المنحى الصهيوني ـ الدولي في الفلسطينيين في اتجاهين عامّين متناقضين، أولهما عبّر عنه إدوارد سعيد، على سبيل المثال، في أثناء حديثه عن الطابع الدولي للقضية الفلسطينية منذ وعد بلفور في سنة ١٩١٧، إذ حثّ على ضرورة التأثير في الفاعلين الدوليين والضغط عليهم بالتفاعل مع حركات في المجتمع المدني الدولي، وهو ما نشهد مؤخراً آثاراً له في ترابط مبادرات فلسطينية ودولية مدنية وتناميها، وهي حركات تتخذ من حقوق الإنسان والعدالة والانفتاح قيماً لها. أمّا الاتجاه الثاني فاتخذ شكلاً من "الإعجاب" الفلسطيني بعدوّهم من حيث التنظيم والانتشار ومدى التأثير الدولي، وقد ولّد لديهم هذا الإعجاب نوعاً من "المحاكاة" لعدوهم، ونجاحهم في ذلك نسبي، وأدى أيضاً إلى التأثير في كثير من جيرانهم وأشقائهم العرب من حيث تشكّل مشاعر متناقضة لدى العرب تجاه الفلسطينيين.

أمّا المؤثر الأساسي في أن يتجه الشتات الفلسطيني نحو "العالمية" السلفية الجهادية فهو الأردن الذي مرت به جميع الرموز "الجهادية" التي تحدث عنها الكتاب. فالأردن، كما هو معروف، بلد فقير بموارده الاقتصادية، والهجرة بين أبنائه إلى دول الخليج وأميركا وأوروبا مسألة قديمة، ولذا، فإنه، بهذا المعنى، بلد "هجرة طارد" للجميع، بحسب مفاهيم علم اجتماع الهجرة، وليس فقط طارداً "للشيوخ" كما يقول الكتاب. وفيما يتعلق باستيعاب الأردن للنسبة الأكبر من اللاجئين الفلسطينيين، وبمنح معظم هؤلاء الجنسية الأردنية، وبالوحدة التي تمت في بداية الخمسينيات من القرن الماضي بين ما بات يُعرف بـ "الضفة الغربية" و"الضفة الشرقية" في المملكة الأردنية الهاشمية، فإن الأردن، بهذا المعنى، وخلافاً للبلاد العربية الأُخرى التي استوعبت لاجئين فلسطينيين كسورية ولبنان من دون أن تمنحهم جنسيتها، ومن دون الخوض في تقويم أثر هذه المسألة في القضية الفلسطينية وفي الإنسان الفلسطيني، كان يعمل على أن يحل محل الهوية الوطنية الفلسطينية، أو أنه خفض سقفها..

لكن الانتقال الرسمي للفلسطينيين في الأردن من الهوية الفلسطينية إلى الهوية الأردنية لم يأت نتيجة انصهار كامل بين مختلف مكونات الشعب، وإنما بقي كثير مما يمكن أن يقال في موضوع التمايز بين القطبين الأساسيين المكونين لذلك الشعب وهما الشرق الأردنيون والفلسطينيون في الأردن، كما بقي الشعور بأن الدولة وأجهزتها وبيروقراطيتها وامتيازاتها هي للشرق الأردنيين، في حين تركز عمل الفلسطينيين في القطاع الخاص والتعليم. واستمر الشعور بالاغتراب لدى كثير من الفلسطينيين في الأردن على الرغم من المساعي الكبيرة للتركيز على ما يجمع مختلف الفرقاء من جانب قوى متعددة.

علاوة على هذا النقاش، فإن ما يميز الأردن أيضاً هو وجود حركة إسلامية متميزة من إخوتها في البلاد المجاورة من حيث طبيعة العلاقة بالنظام. فحركة "الإخوان المسلمين" بقيت منذ تأسيسها في الأردن على علاقة جيدة جداً بالنظام، بل حليفة له في كثير من القضايا. وتمثلت سياسة النظام في تبنّي الإسلام، والذي طال العديد من التشريعات الاجتماعية والتربوية، على اعتبار أن العائلة المالكة هي وريثة الرسول. ولذلك حصل الإسلاميون، ولا سيما "الإخوان المسلمين"، على كامل حريتهم في التعامل مع المجتمع، وبقيت بصمتهم واضحة في مجالات التربية والتعليم والقضايا الاجتماعية الأخرى.

ولم تكن الدولة الأردنية بعيدة عن الجهود التي بُذلت لإرسال "الجهاديين" إلى أفغانستان لمحاربة السوفيات والنظام الأفغاني المتحالف معهم هناك، وبالتالي ساد انسجام كبير في العلاقة بين الدولة في الأردن والإسلاميين في تلك الفترة فيما يتعلق بتلك الجهود. لكن ما إن أصبحت توجهات الحكم الأفغاني أيام طالبان على خلاف مع السياسة الأميركية حتى برزت وجهات النظر المختلفة بين الدولة والإخوان في الأردن في هذا الشأن.

ذلك كله يشير إلى أن تشجيع الإسلاميين والفكر السلفي الرسمي لم ينحصر فقط في البيئتين الجغرافية والفكرية في الأردن، بل طال البيئة السياسية المشجعة أيضاً. صحيح أن هذا التشجيع السياسي لا ينطبق على حزب التحرير الذي كانت علاقته بالنظام سيئة بسبب طبيعة فكره الانقلابي وموقفه العدائي من الأنظمة كلها بما فيها الأردني، إلاّ إن وجود "الإخوان المسلمين" و"حزب التحرير" في المكان نفسه مهّد البيئة الملائمة لإنتاج الإسلامي المسيس، ولإمكان ذهابه في اتجاه أكثر تطرفاً.

وينطبق ذلك على بلاد الخليج العربي، وخصوصاً السعودية والكويت على الرغم من الفارق بينهما. فهذه البلاد شكّلت بعد النكبة الفلسطينية، وظهور النفط فيها، مهجراً لمئات الآلاف من الفلسطينيين، ولا سيما أولئك الذين وجدوا أنفسهم في الأردن بعد هجرتهم من الأراضي التي احتلتها

القوات الصهيونية في سنة ١٩٤٨، أو كانوا من سكان الضفة الغربية.

إن بلاد الخليج صحراوية ومحافظة اجتماعياً، وقد أدى الإسلام تاريخياً دوراً مؤسساً لمجتمعاتها، بمعنى أن الإسلام لم ينشئ هناك دولة ونظاماً فقط، بل أوجد أمة ومجتمعاً أيضاً. وبالتالي، فإن الإسلام هو المرجع الأساسي الذي يمكن العودة إليه، وربما لذلك أيضاً فإن الإسلام في تلك البلاد لا يمكن إلاّ أن يكون سلفياً، والأنظمة تريده أن يكون "جهادياً" عندما يتطلب الأمر محاربة السوفيات في أفغانستان، وأن يكون تقليدياً عندما يكون في تلك البلاد نفسها. وكما هو معروف، فإن حركة المجتمعات لا تسير دائماً على الطريقة التي تريدها لها الأنظمة.

أمّا في البلاد التي يتناولها الكتاب كالمملكة العربية السعودية، والى حد ما دولة الكويت المختلفة كمّاً لا نوعاً في هذا المجال، فإن الإسلام لا يشكّل ديناً للعبادة أو مرجعية روحية فقط، ذلك بأن الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية يطال حياة السعودي في مختلف مناحي حياته. وهذه البيئة كانت ممراً طبيعياً لكثير من الفلسطينيين، فالفلسطيني العادي، وخصوصاً في فترة ما بين النكبة وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، وُلد بهوية مستلبة، وذهب إلى بيئة (في حالة الأردن) حقنته "بجرعة" إسلامية محافظة هيّأته مهنياً وروحياً للهجرة إلى الخليج، فساهمت في ابتعاده جغرافياً وفكرياً ونفسياً عن فلسطين، وأصبح من الصعب جداً توقع ردة فعله على هذا كله.

وهنا ربما يجب أن نشير إلى اختلاف الكويت عن السعودية في هذا المجال، فالفلسطينيون ذهبوا إلى الكويت بأعداد أكبر، وعاشوا في مساحة أضيق كثيراً، وفي هامش أكبر من الحرية الشخصية والفكرية والسياسية، فأنشأوا في الكويت مجتمعاً فلسطينياً نقلوا إليه أسماء قراهم وحاراتهم ومدارسهم وطبيعة حياتهم. وبالتالي، لم يكن غريباً أن تنشأ أنويه لتنظيمات فلسطينية متعددة هناك، ولذلك كانت حرب الخليج واحتلال صدام الكويت وخروج الفلسطينيين منها نكبة ثانية لهم وتهجيراً ثانياً. أمّا في المملكة العربية السعودية حيث عدد الفلسطينيين أقل، وحيث مساحة الانتشار واسعة، فإن الفلسطينيين بقوا أفراداً ولم يتشكل مجتمع خاص بهم، ولذلك لم ينتج منهم هناك في الأغلب سوى أفراد محافظين قلّما ساهموا في الحركة الوطنية الفلسطينية مقارنة بالفلسطينيين في المناطق الأُخرى.

وفيما يتعلق بالفلسطينيين في لبنان، الذين بقوا طوال هذه الفترة في تجمعات ومخيمات فلسطينية، واستمروا في تلك التجمعات لأجيال عدة يتناقلون الرواية الفلسطينية للنكبة من دون انقطاع، ولم يجر تشويش على هويتهم الوطنية من جانب الدولة المضيفة، بل بولغ في ضرورة تمسكهم بهذه الهوية بهدف السكوت عن حرمانهم من حقوق إنسانية وشخصية، فضلاً عن وجود منظمة التحرير الفلسطينية والحركات الوطنية الفلسطينية، فإن هذه الأمور كلها أبقت على الفلسطينيين هناك في وضع مختلف فيما يتعلق بالإسلام الجهادي أو السلفية الجهادية.

يتبين من النقاش السابق أننا نوافق الكاتب على مجمل النتائج التي ذهب إليها بشأن دور الفلسطينيين الملحوظ في موضوع السلفية الجهادية وذلك لخصوصية الوضع الفلسطيني بعد احتلال فلسطين، ولضياع الهوية الوطنية والذهاب للبحث عن البديل في الاتجاهات الدينية والقومية والماركسية كافة.

ومن الضروري أن ننتبه إلى أن الكاتب تحدث عن فلسطين القضية التي أوجدت ذلك النوع من التشظي والارتباك الفكري والحركي، إذ ليس هناك جغرافيا معينة أو شعب معين ينتج إرهاباً، غير أن الاحتلال الاستيطاني والاقتلاع والظلم، وهي أمور لم يشهد لها التاريخ المعاصر مثيلاً، تفاعلت مع جغرافيا سياسية كانت في كثير من جوانبها جزءاً من المؤامرة، وأصبحت في أساس ردات الفعل كلها، بما فيها الإرهاب.

إياد البرغوثي
كاتب وباحث فلسطيني